الإجابة

لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة

[ألفه الامام الزركشي وحققه الأستاذ سعيد الأفغاني]

لأستاذ جليل

الأستاذ سعيد الأفغاني — العربي الشامي — مسلم مؤمن ، وفاضل مهذب ، وأديب محقق . ومن رافقه وقرأ أقواله ظهرت له هذه السجايا والمزايا ظهوراً . ومن خطط هذا السيد أن يُطرف فيما يؤلفه أو ينشره من كتب السلف الصالح . فمصنفه (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) مباحثه طريفة ذات جدة . وكتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة تأليف الإمام بدر الدين الزركشي) الذي أظهره اليوم — من أدلة هذا الإطراف . وترجمة الكتاب تنبئ عن غرابته وطرافته

وإن نشر الباحث مؤلفاً قديماً محققاً إياه تحقيق الأستاذ الأفغاني كتاب الإجابة — تأليف وزيادة

وعملُ العرب الحق في هذا الوقت — كما يرى أكثر الفضلاء — إنما هو نشر مصنفات الأقدمين ونقل مقالات الغربيين ليس غير . وحجتهم في ذلك أن (البعث) حديث وأن ليس عند العرب اليوم شيء ، والمفلسون المساكين لا يكلفون إنفاقاً ولا جوداً . على أن حاجة العرب العظيمة إلى ذينك النشر والنقل لا تصدعن التأليف فلينشر الناشرون ، ولينقل الناقلون مكثرين . وليؤلف — بعد البحث الطويل ، والتفكير الكثير ، والمراجعات المديدة — المؤلفون مقلين ، مقلين

* * *

الحديث والمحدثون في الإسلام عالم عجيب . وليس في الدنيا أمة عنيت بما يُعزى إلى صاحب نحلتها عنايتنا بأحاديث النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم) . ومما بعث على هذه العناية الكبرى أن أقواله (صلوات الله وسلامه عليه) لم تقيد بالكتاب في أيامه ، ولا أيام صحابته (رضوان الله عليهم أجمعين) ، ولم يكن إلا الألسنة تنقل أو ترى « وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلاً صرفاً[1] » وعند أهل السنة أحاديث غابت عن الإمامية ، ومع هؤلاء ما لا تعرفه الجماعية ، السنية ؛ وعند الصوفية والاسماعيلية ، وسائر الباطنية غرائب تنكرها تانك الفرقتان . وقد بذل الأئمة (رحمهم الله) المجهود بل فوق المجهود في أمر الحديث ورجاله . وأبدعوا في مؤلفاتهم وتفننوا ، وأفردوا كل نوع منه ومن رواته بالتصنيف المجوَّد « لقد كانوا في دقتهم وتحريهم وإحاطتهم وإتقانهم معجزة الله في المؤلفين[2] »

وليقرأ من أراد الإلمام باهتمام القوم (مقدمة ابن الصلاح) في علوم الحديث . ففيها إشارات مبينات ؛ وهي في هذا الفن مثل مقدمة ابن خلدون في بابها كما قال فقيه الشام كلّه العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار .

ومن أدلة الإحفاء أو الاستقصاء في شأن الحديث ، ومن بدائع التنويع والتخصيص فيه كتاب (الإجابة) الذي صنفه الإمام الزركشي ، وحققه وأنشأ مقدمته وعلق عليه وفهرسه الأستاذ سعيد الأفغاني .

* * *

يبدأ الكتاب بمقدمة الأستاذ الأفغاني ، وقد نشر شيئاً منها في الجزء (٣٠٤) من « الرسالة » الغراء . ذكر فيها مطنباً موضحاً مكانة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وسيرة المؤلف وأسماء مصنفاته الثلاثة والثلاثين .

وتجيء بعد ذلك مقدمة المؤلف وقد أشار إليها محقق (الإجابة) في مقالة له في الجزء (١٩) من « الثقافة » الغراء .

ويليها الباب الأول في سيرة « السيدة » : (رضي الله عنها) وخصائصها وفيه فصلان : الفصل الأول في ذكر شيء من حالها ؛ وقد جاء فيه :

« رُوي لها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ألفا حديث ؛

(١) ابن خلدون في المقدمة في الفصل السادس في علوم الحديث

(٢) الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمته في كتاب الاجابة .

ومئتا حديث ، وعشرة أحاديث » ، (٢٢١٠) .

وفى هذا الفصل : « ... عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين أنه قال: أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً ، ثم قالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلما بلغتها قالت : (وصلاة العصر) سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم »

قلت : وفى (كتاب المصاحف) للسجستانى نحو من هذا . وعزا الزمخشرى هذه الحكاية إلى حفصة (رضى الله عنها) وقال فى كتابه أيضاً : « روى عن عائشة وابن عباس (رضى الله عنهم) والصلاة الوسطى وصلاة العصر بالواو ، وقرأت عائشة (رضى الله عنها) والصلاة الوسطى بالنصب على المدح والاختصاص » وعزتها رواية فى الطبرى إلى أم سلمة (رضى الله عنها) وذكرت رواية فيه حميدة ابنة [1] أبي يونس لا أبا يونس . وقد أورد الإمام الطبرى فى تفسيره (جامع البيان) روايات كثيرة ، كلها تبيين للصلاة الوسطى فقط منها هاتان الروايتان :

« ... قتادة عن أبي أيوب عن عائشة أنها قالت: الصلاة الوسطى صلاة العصر ... عن سليمان التيمى عن أبي أيوب عن عائشة مثله »

فالسيدة (رضى الله عنها) مفسرة . وفى الجزء ٢١١ من (الرسالة) الغراء كلمة أشارت إلى ما أشارت إليه ، وجاء فى ختامها هذا : « إن كان كتاب كل أمة أو ملة فيه تبديل وتحريف وفيه زيادة ونقصان ، وفيه الخطأ والخطل ، وكان كاتبُه غيرَ صاحبه . فـ (ذلك الكتاب لا ريب فيه) (إنّا نحن نزّلنا الذكرَ ، وإنّا له لحافظون) . »

الفصل الثانى فى خصائصها (رضوان الله عليها) وهى اثنتان وأربعون ، وقد بين المؤلف كل خاصية من هذه الخصائص أو الخاصيات . قال فى السادسة عشرة : « اختياره صلى الله عليه وسلم أن يمرض فى بيتها . قال أبو الوفا عقيل (رحمه الله) : انظر كيف اختار لمرضه بيت البنت ، واختار لموضعه من الصلاة الأب ، فما هذه الغفلة عن هذا الفضل والمنزلة ؟ ! »

وقال فى السابعة والعشرين : « جاء فى حقها (خذوا شطر دينكم عن الحميراء [2]) وسألت شيخنا الحافظ عماد الدين بن كثير عن ذلك فقال : كان شيخنا حافظ الدنيا أبو الحجاج المزى (رحمه الله) يقول : كل حديث فيه ذكر الحميراء باطل إلا حديثاً فى الصوم فى سنن النسائى »

قلت : بطلان ذاك المقول ظاهر مثل الشمس ، وقد قال الإمام العلامة الكبير (على القارى) فى رسالته فى (الموضوعات) : « ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً » وذكر أموراً كثيرة : « منها أن يكون الحديث باطلاً فى نفسه فيدل بطلانه على أنه ليس من كلامه كحديث (إذا غضب الرب أنزل الوحى بالفارسية ، وإذا رضى أنزله بالعربية) وحديث (خذوا شطر دينكم عن الحميراء) ، وحديث (من لم يكن له مال يتصدق به فليلعن اليهود والنصارى) ، فإن اللعنة لا تقوم مقام الصدقة أبداً »

ويلى هذا الفصل الباب الثانى والباب الثالث فى استدراكاتها (رضى الله عنها) على أعلام الصحابة (رضى الله عنهم) . وهذان البابان هما معنى الكتاب . وفى الأول أربعة وعشرون استدراكا ، وفى الثانى أحد عشر استدراكا . وقد ذيلهما محقق الكتاب بأربعة استدراكات ، قطفها من (مسند أحمد) — رحمه الله — وهى تدل على عظم تفتيشه واحتفاله فى البحث .

* * *

جاء فى الباب الثانى من الاستدراكات على عبدالله بن عباس (رضى الله عنهما) : « أخرج البخارى ومسلم من طريق عمرة بنت عبد الرحمن أن زياد بن أبي سفيان كتب إلى عائشة ... » .

فهذا الإمام المهذب المحقق يذكر أخا سيدنا معاوية (رضى الله عنه) كما ترى ، ونابتة فى هذا العصر تعنى عن النسبة الحق وتضلها أساطير فى أمثال كتاب (العقد) .

إن زياد بن أبي سفيان (رضى الله عنهما) من أبطال العرب ومن رجال الإسلام الكبار ؛ فليعلم ذلك من يجهل .

ومن استدراكاتها على ابن عباس (رضى الله عنهم) : « ردت على ابن عباس قراءته قوله تعالى (وظنّوا أنهم قد كُذِبوا) بالتخفيف فأخرج البخارى فى التفسير عن أبي مليكة قال ابن عباس (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا) خفيفة ذهب بها هنا لك ، وتلا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟) فلقيت عروة بن الزبير فذكرت له ذلك ، فقال : قالت عائشة : معاذ الله ! والله ما وعد الله رسوله فى شىء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم ، فكانت تقرأها (كُذِّبوا) مثقلة »

قلت: القراءة بكسر الذال والتخفيف هى المشهورة، ولها معنى غير الذى خطأه ابن عباس وقرىء بكسر الذال مشددة وبفتحها مخففة ومشددة وفى (جامع البيان) للطبرى (الجزء ١٣ الصفحة ٤٧) روايات

(١) يحذفون الألف فى مثلها وهى عندي لا تحذف

(٢) قلت : فى النهاية : تصغير الحمراء يريد البيضاء . وفى اللسان : العرب تقول : إمرأة حمراء ، أي بيضاء

ذوات فوائد فى قراءات هذه الآية وتفاسيرها .

وقال (الكشاف) فى قراءة ابن عباس وتفسيره : « وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية . وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين ، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح »

ومن استدراكاتها على أبى هريرة (رضى الله عنهما) : « . . . عن أبى هريرة قال : (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً) فقالت عائشة رضى الله عنها : لم يحفظ الحديث ؛ إنما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به »

قلت إن من يجترئ بحديث أبى هريرة (رضى الله عنه) ليدهاه ما يدهى من يجهل السبب فى وحى آية الشعراء

قال الإمام الطبرى فى (جامع البيان) : « قال عبد الرحمن ابن زيد : قال رجل لأبى : يا أبا أسامة ، أرأيت قول الله (جل ثناؤه) : والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون. فقال أبى : إنما هذا لشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين . ألا ترى أنه يقول : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى آخره . فقال: فرّجت عنى يا أبا أسامة فرّج الله عنك! »

وقال الكشاف فى تفسير الآية : « هم شعراء قريش عبد الله بن الزِّبَعرَى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحى ، ومن ثقيف أمية بن أبى الصلت ، قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم »

وروى الزمخشرى عن الخليل : « كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير الكلام ، ولكن كان لا يتأتى له »

وجاء فى (الإجابة) فى باب الاستدراكات : « نقل أهل التفسير فى قوله تعالى : (والذى قال لوالديه) إن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هرقلية [1] ، أتبايعون لأبنائكم ؟ ! فقال مروان : يا أيها الناس هذا الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أف لكما) فسمعت عائشة فغضبت وقالت والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت قضيض من لعنة الله)

قلت : روى فضيض وفظاظة وأنكرها الخطابى ، وفى أكثر كتب الحديث وغريبه وكتب اللغة التى روت هذا الخبر أوشيئاً منه — (فضض) بالفاء .

وهذا الحديث فى (البخارى) وقد أشار إليه الزركشى ولم يورده ، وهذه رواية أبى عبد الله (رحمه الله) :

« ... عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئاً ، فقال : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا ، فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه : (والذى قال لوالديه : أف لكما أتعداننى) فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى »

ومن استدراكاتها (رضى الله عنها) على أزواجه (صلى الله عليه وسلم) ورضى عنهن: « أخرج البخارى ومسلم عن عروة عن عائشة أنها قالت : إن أزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) حين توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت عائشة لهن : قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لا نورث ، ما تركناه صدقة »

ويتبع هذين البابين والذيل فى الاستدراكات الفائقات فهارس الكتاب : فهرس الأعلام ، فهرس الجماعات ، فهرس الأماكن ، فهرس الكتب ، فهرس الموضوعات

* * *

إن هذا الذى خططناه إنما هو إشارة إلى كتاب الإجابة لا تبيين ولا توضيح . ومن شاء من الفضلاء أن يعرفه ويستفيد منه اشتراه وقرأه ، ودعا للمؤلف ، وأثنى على (السعيد) المحقق . بارك الله فيه ، وأكثر فى شباب العرب والمسلمين من أمثاله .

القارىء

(١) فى الفائق : (أجئتم بها هرقلية قوقية) قوق اسم ملك من ملوكهم ويقال الدنانير الهرقلية والقوقية . وفى اللسان : يريد البيعة لأولاد الملوك سنة الروم والعجم .